المحاضرة السابعة: المنهج الجدلي عند فريديريك هيجل.

ولد جورج فيلهيلم فريدريش هيجل (1831-1770م)، بمدينة اشتوتجارت بألمانيا. في نفس العام الذي ولد فيه الموسيقار الألماني بيتهوفن والشاعر الإنجليزي الرومانسي وردزورث. كان الأخ الأكبر لثلاثة أولاد في أسرة متوسطة. جذور عائلته نمساوية بروستانتية. هاجرت الأسرة مثل غيرها من الأسر في القرن السادس عشر إلى ألمانيا، هربا من إضطهاد الكاثوليك للبروستانت. كان والد هيجل، موظفا حكوميا صغيرا. وكانت أمه شديدة الذكاء، محبة للتعلم على عكس نساء عصرها. دخل هيجل المدرسة الأولية، وكانت والدته تشرف بنفسها على هذه المرحلة. ألحِق سنة 1775م بالمدرسة الرومانية. ثم ذهب إلى المدرسة الدينية الثانوية بمدينة اشتوتجارت سنة 1780م، لمدة احد عشر عاما. أثناء هذه الفترة، توفت أمه سنة 1783م. وشرع في كتابة مذكرات بعنوان "حوار بين أوكتاف وأنطوان وليبيدوس" سنة 1785م، وكتاب بعنوان "الديانة لدي الإغريق والرومان" سنة 1787م. نال هيجل دبلوم الدراسة الثانوية سنة 1788م، ثم التحق بالمعهد الأسقفي في توبينجين لدراسة البروتستانتية بمنحة حكومية. وفي نفس العام، انجز بحثا عن "بعض الفوارق والإختلافات بين الشعراء القدماء والمحدثين".حصل هيجل على شهادة التعليم الفلسفي من المعهد الأسقفي سنة 1790م. لكنه قرر سنة 1793م، التخلي عن عمله كقسيس، وممارسة التعليم في مدينة بيرن. أثناء هذه المدة، كان زميله في السكن الجامعي هولديرلين، الذي أصبح فيما بعد، شاعر ألمانيا العظيم. وكذلك فيلسوف المستقبل شيلنج.بعد ذلك، مرت بهيجل فترة عصيبة، امتدت لسنوات عديدة. كان يكافح فيها للحصول على لقمة العيش واستكمال نظريته الفلسفية. أول وظيفة أكاديمية كمدرس فلسفة، كانت في جامعة جينا من 1801م إلى 1807م. بدأ بالعمل كأستاذ غير متفرغ. يحصل على أجره من الطلبة الذين يحضرون محاضراته. في أكتوبر عام 1806م، سقطت مدينة جينا في يد نابليون بونابرت، واقتحم جنود بونابرت منزل هيجل. إلا أنه تحت هذه الظروف، أمكنه استكمال كتابه "ظاهريات الروح". وهو أعظم ما كتب في هذا الموضوع في الحضارة الغربية. لكنه صعب الفهم. ويرى البعض أنه من المستحيل استيعاب بعض أجزائه.

ما هي المدارس الفلسفية التي كانت معروفة أيام هيجل؟ لقد كانت توجد الفلسفة العقلانية الفرنسية يتزعمها ديكارت، والفلسفة التجريبية الإنجليزية يتزعمها هيوم. والفلسفة الألمانية، التي تزاوج بينهما، لكانط. وكانت توجد أيضا حركة فكرية جديدة توصف بالرومانسية الألمانية. لكن، ما هي الرومانسية الألمانية؟ الرومانسية الألمانية، لم تكن حركة جديدة في عالم السياسة ونظم الحكم، بقدر ما كانت حركة ثورية في عالم الأدب، والفلسفة والفنون التشكيلية والموسيقى والشعر. لقد كانت طريقة جديدة للنظر إلى هذا العالم، نتج عنها طاقة إبداع خلاقة، تأثر بها المثقفون والفنانون الألمان. وجعلتهم يرفضون فلسفة التنوير التي تنحصر وتلتزم بالعقل فقط، وبالعلوم الرياضية وعلوم المنطق والقوانين العلمية.

فلسفة الأنوار، حسب رأي الرومانسيين، خُدعت بالتقدم الكبير المادي الذي أحرزته البشرية بتوظيفها للعلوم الحديثة في الصناعة والفلك والكيمياء، مثل قوانين نيوتن وكبلر وغيرها.

لكن ما هو البديل الذي يقدمه الرومانسيون لفلسفة الأنوار؟ البداية جاءت مع فلسفة كانط. كانط يقول أننا غير قادرين على معرفة كل الحقيقة. لأن معرفتنا محدودة بقدرات حواسنا. هناك حقيقة عليا، يعجز العقل عن إدراكها.

كيف الوصول إلى هذه الحقيقة العليا التي لا أستطيع إدراكها بالعقل وحده؟ يجيب الرومانسيون، بالنظر داخل أغوار النفس. لن تجد الحقيقة في العالم الخارجي، الذي يعتمد وجوده على الحواس. إنما الحقيقة والحقيقة العليا، نجدهما في الداخل. داخل النفس. نحن هنا نشم رائحة أفلوطين وإخوان الصفا ومشايخ الطرق الصوفية.

داخل أغوار النفس، يمكن معرفة الله ومعرفة الحقيقة ومعرفة سبب وجود الإنسان على هذه الأرض. وليس بالنظر إلى العالم الخارجي عن طريق العلوم والمنطق والفيزياء.

مثل الوجوديين الفرنسيين في القرن العشرين، إستخدم الرومانسيون الألمان الأدب والرواية والشعر والدراما والمقالة والقصة القصيرة والموسيقى والشعر، للتعبير عن أغوار النفس الداخلية والشعور الإنساني، وشجب أي فلسفة أخري، تهمل التأمل في أغوار النفس البشرية.

العلوم الحديثة، لم تنجح في كشف كل خبايا النفس البشرية. العالم لا يزال يكتنفه كثيرا من الغموض. التخاطب عن بعد. والأحلام التي تتحقق بالضبط. والنبوءات التي تصدق. والتجارب الخاصة التي يمر بها بعض الأفراد. وقراءة الأفكار بدون كلام. والوقوع في الحب. وموضوع الروح والحياة الأخري والله والملائكة والشياطين...الخ.

لذلك بحث الرومانسيون عن فلسفة تجيب على كل هذه الأسئلة. لكي نفهم هذا العالم ونجيب على هذه الأسئلة، علينا أن نلجأ إلى التجربة الروحية. ولا نعتمد فقط على التجربة الحسية والقراءات التي تدونها أجهزتنا وحواسنا. والتي تعتمد على التحليل العقلي والإستنتاج.
بالنسبة للرومانسيين، الحقيقة العليا وطبيعة الإنسان، لا تعتمد على الحجة والعقلانية فقط، ولكن أيضا على إرادة الفرد. إرادة الفرد، تتشوق إلى تحقيق الذات. إرادة الفرد، تبحث عن الكمال. تحاول الوصول إليه عن طريق التجربة الخاصة والتجربة الروحية، أو عن طريق أحداث التاريخ وحركة الثقافة والفكر. يقول الرومانسيون، أن الأشياء الحقيقية، هي في الواقع أشياء روحية. وليست مادية، كما يقول فلاسفة التنوير. الطبيعة، في أدب الرومانسيين، أشياء روحية. الطبيعة ليست ساعة كبيرة ميكانيكية. تعمل بقوانين نيوتن. لكنها شئ حي ينبض بالحياة، له إرادة.
بالنسبة لفلاسفة عصر التنوير، الله هو المهندس المصمم لهذا العالم كآلة ميكانيكية. لكن بالنسبة للرومانسيين، الله هو روح هذا العالم. لا يوجد خارجه، ولكن يوجد في كل مكان.
الموضوع الأخير بالنسبة للرومانسية، هو إيمانها بالإستقطاب. كل الأمور، لها وجه مقابل، أو وجه آخر. أي تجربة يمر بها الرومانسي، لها وجهان. لو كانت كل الأمور لها وجه واحد، لأصبحت الأمور جامدة صلبة قاسية. ويصبح الإنسان أسير أفكاره. هذه مشكلة الفكر المتعصب. لا يعترف برأي الآخر. لذلك، يصبح المتعصب أسير أفكاره. الرومانسية تحارب أحادية التفكير. حتي لا يصبح الفرد، عبدا لما يعتقد.
عندما دخل هيجل المعهد الديني في توبينجين لدراسة الفلسفة والدين لمدة خمس سنوات. كانت أفكار الرومانسيين في كل مكان. فأي الأفكار الفلسفية الموجودة لها التأثير القوي على هيجل؟

هل هي الفلسفة الرومانسية، التي تؤمن بالروح والإرادة والتعدد؟ أم الفلسفة العقلانية أم التجريبية، التي تؤمن كل منها بالعلوم والتقدم والحقوق الطبيعية للإنسان؟ أم فلسفة كانط التي هي مزج بين العقلانية والتجريبية؟ الإجابة هي: لقد تأثر هيجل بكل هذه الفلسفات مجتمعة.
لقد تأثر هيجل بالرومانسية، بالرغم من هجومه عليها في بعض الأحيان. لقد كان يبحث هيجل عن فلسفة غير مقيدة بحدود. تشمل كل تجارب الإنسان وخبراته. تدمج كل المعارف: علوم وتاريخ ودين وسياسة وفن وأدب وموسيقى وشعر. كيف نجمع كل هذه الخبرات في نظام فلسفي واحد؟ وكيف نضعها كلها في نظرية منطقية واحدة بدون تعارض؟ لقد فعل ذلك، عن طريق مفهوم العقل المطلق أو الروح.كيف يجمع هيجل كل هذه الخبرات، بما فيها من تناقض وتوتر وتشاحن وتمازج وتجديد وتدمير وإبداع. كيف نضع كل ذلك في سياق وحدة عقلانية شاملة؟ لقد فعل ذلك عن طريق نظريته في "الجدلية". لكن، هذه الفلسفة الشاملة التي تبغي فهم الحقيقة، هي فلسفة ميتافيزيقية. هنا نجد هيجل قد وقع في مشكلة. هل الميتافيزيقا لا تزال ممكنة؟ التجريبيون، بدأً من جون لوك، كان موقفهم صعب بالنسبة للأمور الميتافيزيقية.
الميتافيزيقا تفسر معني الوجود والمادة، ولكن كما يقول لوك، هل لدينا دليل أو تجارب عملية تثبت حقيقة هذه القضايا الميتافيزيقية؟ وهل عقل الإنسان قادر على فهم الحقيقة العليا، أو استدراك مثل هذه الأمور؟
كانت نصيحة جون لوك لباقي الفلاسفة: "لا تحاولوا بناء صرح كبير ميتافيزيقي" يكفيكم، تنقية الميتافيزيقا القديمة من الشوائب والتلوث، لكن الميتافيزيقا بالنسبة لهيجل ممكنة. لقد أخذ هيجل من كانط، كون المعرفة تأتي عن طريق العقل، عن طريق نظارة المكان والزمان وفئات أو برامج الفهم. لكن هيجل له ثلاث إعتراضات علي نظرية كانط في المعرفة.
الإعتراض الأول، هو أن برامج الفهم محدودة عند كانط، لكنها غير محدودة عند هيجل. الإعتراض الثاني، هو أن برامج الفهم هذه، لا تقتصر على الحواس فقط كما يقول كانط. الإعتراض الثالث، هو أن المعرفة ليست ظاهرية، كما يقول كانط. لقد أراد هيجل مزج أفكار كانط بأفكار الرومانسيين، حتي يتخطى حدود المعرفة التي وضعها كانط فيي فلسفته. لكن، ما هي نظرية هيجل الجديدة عن الحقيقة؟ لقد وجد هيجل طريقة يجمع بها ثقافة الإنسان وكل علومه وتجاربه الروحية المترامية من فنون وآداب ودين وسياسة وتاريخ، بالإضافة إلى تجاربه الشخصية، في نظرية واحدة. هذه النظرية، توحد كل المعرفة في عقل مطلق أو روح سرمدية أو الله، هي بمثابة الحقيقة العليا. الحقيقة هنا، مفهوم عام شامل معقد، لمفاهيم عقلية تكوّن العقل المطلق أو الله. الحقيقة عقلانية، والعقلانية حقيقة. الحقيقي هنا حسب كلام هيجل، هو كل ما يدركه العقل، وليس كل ما تدركه الحواس، كما يقول التتجريبيون. وأيضا، كل شئ صادق، يمكن للعقل أن يدركه.
نظرية هيجل عن الحقيقة، هي نظرية ميتافيزيقية تسمى المثالية المجردة. المثالية بصفة عامة، هي إسم لنوع

من الميتافيزيقيا، يقول بأن الحقيقة لها خواص عقلانية ومنطقية وروحية. الحقيقة هي هذا التركيب العام للمفاهيم العقلانية. أي التي يمكن أن يدركها العقل. مثل أفلاطون، يقول هيجل، أن ما يفهم بالعقل والتصورات والأفكار هي الحقيقة. الله عند هيجل، هو الحقيقة العليا والصدق. يتجلى لعقولنا المحدودة خلال كل مجالات المعرفة وتجاربنا المختلفة.
ما هو الوجود؟ أي ما هي الأشياء الحقيقية الموجودة في هذا العالم، من مادة وخلايا ومجتمعات...إلخ؟ هل هذه الصور من الوجود كلها، لها وجود حقيقي؟ بالنسبة لهيجل، العقلاني، أي الذي يدركه العقل فقط هو الحقيقي. الشئ الحقيقي لا يختلف عن الشئ الموجود. هو نفس الشئ. الفرق بين الحقيقي والموجود، هو أن الموجود أكثر فهما بالنسبة لنا. المثالية المطلقة لهيجل، تخترق هذا الوجود لكي تجد العقلانية والصدق.
هنا يمكننا أن نري الفرق بين مفهوم المُثُل أو الأفكار عند أفلاطون، ومفهوم التصورات عند هيجل. عند أفلاطون، الأفكار توجد مستقلة عن الشخص أو الوجود. وهذا يشكل مشكلة بالنسبة لفلسفة أفلاطون. بالنسبة لهيجل، مفهوم التصورات العقلانية، لا ينفصل عن الوجود وعالم الأشياء.
يختلف هيجل عن هيوم وكانط، في أن الحقيقة يمكن معرفتها والوصول إليها. بالنسبة لهيجل، كل شئ موجود هو عقلاني. وهذا يعني أن كل شئ له تركيبة عقلانية يمكن للعقل البشري أن يستوعبها. كل خبرات الإنسان وتجاربة يمكن إستيعابها وفهمها.
العقل المطلق، عبارة عن توحيد شامل لكل الحقائق العقلانية. يشمل كل التجارب والخبرات. ويقوم بترتيبها في وحدة مترابطة.
وظيفة الميتافيزيقا هي توضيح المكونات المختلفة للحقيقة، ومعرفة حدودها وتداخلها، داخل الوحدة الشاملة للحقائق العقلانية. العقل المطلق، كما يقول هيجل، هو الحقيقة الواحدة التي تبدو صورها المختلفة لنا في كل مجالات التجارب البشرية. الصور المختلفة لهذه الحقيقة، تظهر لنا كتجارب مختلفة للإنسان. تظهر في علوم المنطق والعلوم الطبيعية وعلم النفس والعلوم السياسية والتاريخ والفلسفة والمسرح والموسيقى والشعر...إلخ. نحن نفهم الفيزياء والفلسفة والفنون وعلم النفس وغيرها، كمفاهيم مختلفة في كل مجال. وكل مجال من هذه المجالات، يظهر جانب أو جزء من جوانب الحقيقة. الفيزياء مثلا، تظهر جانب مهم من الحقيقة. لكنه جانب واحد. وهذا ما يقوله الرومانسيون. وظيفة الميتافيزيقا هي إظهار كل جوانب وسمات الحقيقة. هذا هو معنى الحقيقة عند هيجل. هذه الحقيقة التي تمثل الصدق الكامل. مجرد تركيب كلي لأجزاء متفرقة.

مناقشة النظرية الجدلية الهامة لهيجل:

"الجدلية"، هي فكر فلسفي قديم. أول ظهورها أيام الإغريق، 500 سنة قبل سقراط. حيث كانت نظرية العناصر الأربعة المتعارضة، الماء والهواء والنار والتراب، تكون العالم الحقيقي الذي ندركه. جاء هيروقليطس، بعد ذلك، ليقول أن كل شئ يتشوق للتحول إلى نقيضه. وسقراط نفسه، لجأ إلى الجدلية في مجادلاته مع معارضيه لكي يوقعهم في التعارض. ثم يقوم سقراط بحل التعارض ليستخرج منه التعاريف الدقيقة. وفي جمهورية أفلاطون، أعلى مراحل المعرفة، هي المرحلة التي نتغلب فيها على التعارض. هي المرحلة، التي تطضح فيها المُثُل أو الأفكار، وتعرف بمضامينها الحقيقية، وبالنسبة لعلاقة كل منها بالآخر، وعلاقة كل منها بالله. لقد قام هيجل بدمج أفكار هيروقليطس وسقراط وأفلاطون في نظريته عن الجدلية. وقدم لنا نظرية طموحة متكاملة عظيمة جبارة.

ماذا يعني هيجل بالجدلية؟ الجدلية عند هيجل هي مجرد توحيد للعناصر المتعارضة. مثل الحكومات الإئتلافية. فهي أيضا، تتكون من أحزاب متعارضة الأفكار. كل مفهوم نفكر فيه، يبدي لنا حدوده وإمكاناته المتواضعة. هذا يقودنا إلى الضد. وهذا يقودنا إلى تعارض واستقطاب الأفكار. هيروقليطس في الزمن القديم كان يقول بأن كل شئ في تغير مستمر. هذه الفكرة بدأت تظهر عيوبها. مما أدى إلى ظهور فكرة معارضة للفيلسوف الإغريقي بارمنيدس. التي تقول بأن كل شئ ثابت لا يتغير.

فكرة Thesisمقولة هيروقليطس أسماها هيجل "الطريحة" أو "الفرضية" أو الرأي الذي لم يثبت بعد ( ). الصراع بين Antithesisبارمنيدس التي ظهرت من التناقض، أسماها هيجل "النقيضة" أي "التناقض" ("الطريحة" و"النقيضة"، يمكن التغلب عليه، حسب رأي هيجل.ينتج من ذلك، مفهوم جديد يقوم بحل التعارض. ويأخذ من الأفكار المتصارعة أفضل ما فيها. هذه الفكرة الوليدة، أسماها هيجل "الجميعة" أو "التركيبة"

). فلسفة أفلاطون، تعطينا "الجميعة"، التي تجمع بين "طريحة" هيروقليطس و"نقيضة" Synthesis(بارمنيدس. لقد احتفظ أفلاطون بفكرة التغير، لكنه قصرها على العالم المحسوس. وقام أفلاطون في نفس الوقت، بالإحتفاظ بفكرة بارمنيدس الخاصة بعدم التغيير. لكن أفلاطون قصرها على عالم الفكر. لقد قام أفلاطون بمزج الأفكار المتصارعة وخرج منها بفكر يجمع أفضل ما فيها.

جدلية هيجل تحدث على ثلاث مراحل. لذلك توصف بالثلاثية. وهي تختلف عن ثلاثية نجيب محفوظ وبطلها السيد عبد الجواد. تنتقل من المرحلة الأولى "الطريحة"، إلى المرحلة الثانية "النقيضة" التي تنفي وتضاد وتعارض صحة المرحلة الأولي. هذا التعارض، ينشأ عنه المرحلة الثالثة "الجميعة"، وهي مرحلة التصالح والتسامي. مرحلة صدق أعلى وأسمى وأرقى من كلا من المرحلتين السابقتين.

المرحلة الثالثة "الجميعة"، لها ثلاث خواص:
1- تستطيع أن تنهي التصادم والتشاحن بين "الطريحة" والنقيضة"
2- تبقي على أفضل ما في "الطريحة" و"النقيضة" من خصال.
3- تتغلب على التناقض وتسمو بالصراع إلى حالة أرقى وأفضل.

هذه الخطوات الثلاث في جدلية هيجل، لا تقتصر على تاريخ الفلسفة، كما بينا سابقا بالنسبة لأفكار هيروقليطس وبارمينيدس وأفلاطون. لكنها، كما يقول هيجل، بمثابة الإيقاع والنغم للحقيقة وكل ما نعرف. المعلومات التي ننشدها بتجاربنا ودراساتنا وعلومنا، ليست معلومات جامدة وساكنة وثابتة. لكنها تنتقل بإستمرار من الفروض إلى النقائض إلى حقائق جديدة. العقل المطلق، الذي يشمل كل هذه الحقائق، عبارة عن حركة ديناميكية. تُظهر لنا الحقائق والصدق بأسلوب جدلي. الحقيقة لا تظهر لعقولنا المحدودة مرة واحدة، ولكن خطوة خطوة. أو كما تقول الفلاحة المصرية لإبنها الذي يتعلم المشي: "تاتا تاتا، خطي العتبة تاتا". تاتا كلمة فرعونية قديمة، تعني إمشي.

إذا قارنا نظرية هيجل الجدلية بكلام أفلاطون، فسوف نجد خلافا بينا. بالنسبة لأفلاطون، الهدف من الإرتقاء بالمعرفة، هو التخلص من التناقضات والتعارض. لكن بالنسبة لهيجل، التعارض دائما موجود ومستمر. خلق التعارض بين الأضداد، هو طبيعة الفكر العقلاني، وبالتالي هو الحقيقة نفسها. جدلية أفلاطون، ينتج عنها المعرفة والحقائق الصادقة الجامدة الثابتة. لكن جدلية هيجل تقول بأن المعرفة والحقائق، ديناميكية متغيرة. بالرغم من وجود فروق جوهرية بين جدلية أفلاطون وجدلية هيجل، إلا أنه لا يزال هناك تشابه بين الجدليتين. كلاهما يتصاعد بجدليته من معرفة دنيا إلى معرفة أسمى وأرقى. وكلاهما يرى الحقيقة تتخطى حدود الحواس والأسلوب الجدلية تفسر الوجود بأنه "الطريحة"، العلمي المعروف. وكلاهما استخدم الجدلية لبناء نظام فلسفى متكامل. والعدم بأنه "النقيضة". ومن التعارض بين الوجود والعدم، يأتي كل شئ في هذا الكون. الجدلية هي خاصية من خواص الحقيقة نفسها وطريقة العقل الإنساني المحدود لفهمها. تتناغم مع كل الفكر الإنساني وحركة التاريخ، وأسلوب لفهم كلاهما.